اسم الدرس : تفسير سورة الأنعام | ح١٨ | الآيات [١١٣ : ١٢١]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نستكمل تفسير سورة الأنعام. كنا توقفنا عند آية [١١٤] بعد قول الله عز وجل: {وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} ثم آية {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}(الأنعام: ١١٣-١١٤).

ذكرنا في آخر الدرس الماضي كيف أن هناك منظومة من العداء تتم للحرب على الدين، وهذه المنظومة يشارك فيها شياطين الإنس والجن، يتعاونون مع بعضهم ضد هذا الدين. وهذا ربما من لطائف قول الله عز وجل: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا}(الأنعام: ١١٢)، لم يقل: أعداء، بل قال: {عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ}، وكأن شياطين الإنس والجن أصبحوا عدوًا واحدًا، وضعوا أيديهم في أيدي بعض وتوحدوا ليهجموا على هذا الدين، (تتداعى عليكم الأمم، كما تتداعى الأكلة على قصعتها)[1]. وعندما يهجمون على الدين يقومون بتوحيد الوجهة، ويتحِدون كلهم للهجوم على هذا الدين، فيصبحوا وكأنهم عدوًا واحدًا.

وبعد هذه المنظومة التي شرحناها؛ بأن يتشيطن بدايةً الإنس والجن، وبعد ذلك يوحي بعضهم إلى بعض، وبعد ذلك يزخرفونه ويُغرون به الناس، وبعد ذلك مرحلة الصغو التي هي الميل القلبي، أو كما قال الله: {وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}(الأنعام: ١١٣). إن هذا الفؤاد المضطرب الذي لا يوجد فيه نور من القرآن، ولا يوجد فيه نور من الإيمان يُخدع بسهولة {وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ...}، وكل ذلك بسبب غياب عقيدة الدار الآخرة؛ لذلك دائمًا لا بد للدعاة إلى الله عز وجل أن يبثوا هذه العقيدة ويثبتوها دائمًا في الناس —الإيمان بالدار الآخرة—، وأن يجعلوا أهم ما يشغلهم الدار الآخرة.

ثم بعد ذلك يمرون بمرحلة الصغو، ثم الرضا، ثم الاقتراف.

إذًا؛ بدايةً الكلام يكون مزخرفًا، ثم بعد ذلك هذه الزخرفة تجعل بعض الناس تميل وتُصغى، بعد ذلك هناك أناس ترضى، وبعد هذا أناس تقترف. فهم يمرون بهذه المراحل: الصغو ثم الرضا ثم الاقتراف.

---

١ عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم: يُوشِكُ الأمَمُ أن تداعى عليكم كما تداعى الأَكَلَةُ إلى قصعتِها .فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ، ولينزِعنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوهْنَ. فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ ! وما الوهْنُ؟ قال: حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ.

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح أبي داود ٤٢٩٧ •صحيح •

بعد هذه المنظومة وأنه سيوجد أناس كُثر ضَلت، {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ}(يس: ٦٢)، أي: هذا الإغواء والزخرفة –للأسف– طلَّت على كثير من الناس! فضلَّ كثير من الناس.

فهنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا}(الأنعام: ١١٤) ما علاقة هذه الآية بالآيات التي تسبقها؟

هذا الزخرفة التي كانت مصنوعة وكانوا يريدون أن يخدعوا الناس بها، ويخدعوهم بتشريعات بديلة غير التشريع القرآني؛ فقد كانوا يريدون أن يقنعوا الناس بأن القرآن لا يصلح لكل زمان ومكان، وأن تشريعات القرآن ليس فيها حكمة ، ولا يوجد فيها شمول، ويوجد فيها نقص! فهذه الزخرفة يخدعون بها الناس، فهنا يقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم: تريدون مني ترك حكم الله عز وجل إلى أحكامكم المزخرفة! {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}! حتى إنه لم يقل: أفغير الله أبغي حكمًا، بل قال: {أَبْتَغِي} وهذا يدل على زيادة البذل، كأن هذا تعريض بغيره؛ بأنه يوجد أناس تجاهد وتسافر للبحث عن تشريعات وتترك القرآن، ربما أناس تسافر لفارس أو الروم لتأتي بتشريعات وتترك الوحي وهو بجانبها! فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}! وقيل إن: الحَكَم أشد قوة من الحاكم، فلم يقل: أفغير الله أبتغي حاكمًا، لا؛ بل قال: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}. حَكَمًا: أي في كل شيء. وإذا حَكَم فلا يرجع في حُكمه سبحانه وتعالى! والحَكم دائمًا أحكامه صحيحة، فالفرق بين الحَكم والحاكِم لغةً: أن الحَكَم الحاكم كثير الحُكم وأحكامه كلها صحيحة.

فيقول النبي صلى الله عليه وسلم لهم: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}! أمازلتم تخدعون الناس بزخرف القول، وتزخرفون لهم أحكام وتشريعات ليتركوا القرآن والسنة ويذهبوا لكلامكم! {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}، ولماذا أذهب لغيره، وأنا معي الكتاب فيه تفصيل كل شيء! أأترك القرآن لأن القرآن فيه نقص؟! لا؛ لا يوجد نقص، أترك القرآن لأن فيه عجز؟ لا؛ لا يوجد عجز، إذًا لماذا أترك القرآن؟! {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا} مفصلًا حتى لا يكون لك حجة، فلا تقل يوجد فيه أمور غير واضحة، أو فيه أشياء ليست مبيَنة!

وكما سيأتي التوضيح؛ بأن هذا التفصيل يكون في التشريعات وليس في الترتيبات الإدارية، لأن الترتيبات الإدارية الأمر فيها واسع. فربما يستفيد الإنسان فيها من خبرات الآخرين حتى ولو كانوا كفارًا! أهم شيء ألا تُعارِض أصولاً في الشريعة، ووضحنا هذا قبل ذلك ونوضحه مرة أخرى –إن شاء الله–.

{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا}، قال بعض المفسرون حول علاقة هذه الآية بالآيات التي قبلها: عندما هاجمت السورة هؤلاء وقالت لهم إنكم في ضلال، وأن هؤلاء القادة والأتباع يزخرفون لكم القول، فذهب مشركو قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا له: ما رأيك نأتي بحَكَم بيننا وبينك؟ ألست تخبرنا أنه جاء لك كتاب من السماء، فما رأيك أن نتحاكم إلى أهل الكتاب، ويحكمون مَنْ الصحيح منا ومَنْ المخطئ؟

وهذا كان باتفاقيات بين اليهود ومشركي قريش، أن يذهبوا إلى اليهود فيحكمون للمشركين ضد المسلمين، وبالفعل قالوا هذا: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا}(النساء: 51)! فقال اليهود أن المشركين أهدى من المسلمين! تخيل؛ أهل الكتاب من شدة العصبية والحميَّة قالوا إن عبادة الأصنام والأوثان أقرب من المؤمنين!

فمشركو قريش لما شعروا بالهجمة عليهم في سورة الأنعام، فذهبوا للنبي صلى الله عليه وسلم لأن هذا الهجوم القرآني سيفضح هذا المخطط المزخرف الذي أضل كثيرًا من الناس {وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}(الأنعام: ١١٣)، فهذا المخطط المتعاون فيه شياطين الإنس والجن، تفضحه السورة! فقالوا له ما رأيك نأتي بحَكم يحكم بيننا؟ فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}(الأنعام: ١١٤)! هل أنا أنتظر أهل الكتاب حتى يحكموا؟! أنا معي القرآن. وعندما قالوا له أحضر أحدًا يشهد بيننا، قال لهم: {كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}(الإسراء: ٩٦).

وقلنا إن شهادة الله للنبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من شيء، منها وأهمها:

القرآن؛ فالقرآن خير شاهد بأن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو من عند الله. وهذا من الإعجاز؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم أنا رسولٌ من عند الله، فمَنْ الذي يشهد لكم؟ يقول لهم القرآن شاهد يشهد لي بأنني رسول، فكيف يشهد لك؟ لأن هذا الكلام معجز لا يأتي به إلا رب العالمين. فهل أنتم معكم شيء يشهد لكم؟! أنا معي الكتاب، وأتحداكم أن تأتوا بسورة من مثله، أي سورة! ولن يستطيعوا بالطبع. {لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}(الإسراء: ٨٨)، فالقرآن شاهد للنبي صلى الله عليه وسلم. فالقرآن أحد أوجه كيفية شهادة الله عز وجل للنبي أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بدعمه بالقرآن.

وكذلك منها بالتوفيق والنصرة لهذا الدين، (اللهم رب هذه الدعوة التامة) أي أن هذه الدعوة ستتم. حينما كانت تنزل الآيات في وقت استضعاف المسلمين وتخبرهم بأن هناك تمكين سيحدث! فكانت تنزل آيات بتشريعات تُبشر بقيام مجتمع مسلم وكان هذا المجتمع لم يقم وقتها بعد! والقرآن صدق.فالتوفيق والترتيبات التي قدرها الله عز وجل لنصرة هذا الدين خير شاهد أن النبي صلى الله عليه وسلم هو رسول من عند الله.

فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم لهم وهل أنا أحتاج أحدًا يحكم بيننا؟! {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}! ولماذا ألجأ لغيره وأنا معي الكتاب مفصلاً؟ {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا}(الأنعام: ١١٤).

لا بد للإنسان أن يكون لديه عزة بدينه، لا يتسول على موائد الشرق والغرب، لا يشعر بأن لديه نقص دائمًا ويريد سدَّه من الآخرين!

{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}(الأنعام: 114).

{وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا}، وبناءً على القول بأن أهل الكتاب كانوا يريدون التدخل في الحكم؛ فهنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ}، هذا تقريبًا ثالث موضع يُذكر فيه أهل الكتاب في السورة مع أنها سورة مكية، وكأن هناك إشارة أنه سيكون هناك هجرة لمكان سيوجد فيه أهل الكتاب. الذين تريدون أن تأتوا بهم ليحكموا بيني وبينكم -بالرغم من رفضي- لكن هم يعلمون أنه الحق ولكنهم يكذبون {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ..} أنت وغيرك يا محمد صلى الله عليه وسلم ومن معك من المسلمين {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}= عندما يأتي حرف النون مفتوحًا يكون للمفرد المخاطب، ومضمومًا يكون للجمع=. فلا تكونَن يا محمد -ولا تكونُن أنتم أيضًا أيها المسلمين- من الممترين أي: من الشاكين.

لماذا ذُكر هنا الشك {مِنَ الْمُمْتَرِينَ}، وذُكر قبل ذلك لفظ {حَيْرَانَ}؟ مثلما قلنا سورة الأنعام من أكثر السور تفصيلاً وتوضيحًا للآيات، وسورة الأنعام من أكثر السور التي وضحت أن المشركين وصلوا لقمة الإعراض عن الآيات، لكن أيضًا المشركين لما بلغوا قمة الإعراض عن الآيات بلغوا قمة طرح الشبهات! ويريدون أن يصل الأتباع -وهم الضعفاء الذين يخدعونهم- أن يصلوا إلى مرحلة {حَيْرَانَ}، كما جاءت معنا قبل ذلك في السورة {حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا}(الأنعام: ٧١)، {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}، يريدون أن يجعلوا الناس تشك في الدين، بأيِّ طريق؟ عن طريق {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}(الأنعام: ١١٢)، فهم مستمرون في زخرفتهم للكلام، ويقدمون برامج إعلامية تشكك الناس في دينها، وكما سوف يأتي معنا؛ ذكر لنا الله عز وجل نموذجًا يشرح آية {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}، ففي الآيات القادمة شرح عملي لكيف يفعلون ذلك؟ وما أهم غرض يريدون أن يزخرفوا فيه القول لخداع الناس؟ وعلامَ يركزون؟ ذكر لنا الله عز وجل نموذجًا لعمل شياطين الإنس والجن مع بعض{فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}.

{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}(الأنعام: ١١٥)، اختار الإمام الطبري القول بأن: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} أي: القرآن تام، فلا تحتاج مع القرآن إلى غيره! أي: تم القرآن، {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}(المائدة: ٣)، القرآن تام، ومفصل، وواضح، ولا تحتاج -في هدايتك إلى ربك- إلى غيره من الكتب. فأنا لا أحتاج أهل الكتاب ليتدخلوا في الحكم، بل أنا مستغنٍ عما عندهم! ولا أنظر في كتبهم.

{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}(الأنعام: 115).

سنكمل تفسير هذه الآية على أن المقصود هنا القرآن، ثم نذكر القول الآخر لها.

{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ}، أي أن القرآن تام. فكأن الآية تقول لمن يسمع إلى الزخرفة {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}(الأنعام: ١١٢): ما الذي يجعله يبحث عن مصدر آخر؟ ما الذي يجعلك تبحث عن مصدر آخر وأنت لديك القرآن؟! فربنا يقول لك القرآن مفصل {أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا}(الأنعام: ١١٤)، والقرآن تام {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}(الأنعام: ١١٥)، القرآن صدق والقرآن عدل، ما معنى أن القرآن صدق وعدل؟

القرآن صدق في كل خبر أخبر به، أي أن القرآن أخبر أن الله سيُمكِّن المؤمنين؛ إذًا هذا صدق وسيُمكّن للمؤمنين. القرآن أخبر أن المؤمنين سيدخلون الجنة؛ إذًا المؤمنين سيدخلون الجنة. القرآن أخبر أن الله عز وجل سيَهزم المشركين؛ إذًا الله عز وجل سيَهزم المشركين. القرآن أخبر أن المشركين سيعذبون في جهنم؛ إذًا سيعذبون في جهنم. الله عز وجل أخبرنا من خلال القرآن أن العاقبة للتقوى؛ إذًا هذا سيحدث. كل كلمات القرآن صدق. ولما قال: {غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ}(الروم: ٢-٣)، ووقتها شكَّ بعض الناس بل وحتى من المؤمنين، ولكن تقدير ربنا وضَّح أن القرآن كله صدق! لما ربنا قال: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}(القمر: ٤٥) بعض الناس تشك، وحدثت الأقدار فعلاً فهزم الجمع وولوا الدبر! كل هذا يحدث.

كل ما في القرآن صدق، وكل ما في القرآن من أوامر ونواهٍ هي عدل. أي أن المعاملات التي ربنا أمر فيها في التعامل مع الزوجة في القرآن عدل. المعاملات التي ربنا أمر فيها في التعامل مع الكافر عدل. المعاملات التي ربنا أمر بها فيما بيننا عدل؛ المعاملات المادية والاجتماعية والسياسية؛ كل المعاملات التي ذُكرت في القرآن عدل.

ومن أجمل ما قيل عن أن القرآن عدل؛ ما معنى ذلك؟ قالوا: عدل أي شئ متزن العدل هو الشئ الوسط ؛أي أن القرآن جاء متزناً بين احتياجات الروح واحتياجات المادة، {إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}(الإسراء: ٩)، القرآن لم يأتِ إغراقًا في المادية، ولم يأتِ بعيدًا عن حاجات جسم الإنسان كبشر وكمخلوق من طين! بل نزل القرآن متوازنًا يجعل الإنسان متوازنًا. {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا}، بالرغم من أنهم طوال الليل يصلون {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا}(الفرقان: ٦٤)، ولكن في معاملاتهم المادية متزنين {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا}(الفرقان: ٦٧)، {يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} فالقرآن عدل، أي أن المعاملات التي ذكرها والأوامر التي أمر بها؛ هو ما يجعلك تستطيع أن تكمل طريقك للآخر. فليس فيها إغراق في المادية كالحضارة الغربية الآن وهي بعيدة عن احتياجات الروح، وليس فيها ما لحضارات الشرق التي كلها مبنية على النفس وبعيدة عن المادة،بل القرآن جاء وسطًا بين المادة وهي احتياجات الإنسان كبشر، واحتياجات الروح، فجاء القرآن عدلاً متوازنًا.

والإمام الشنقيطي في كتابه "العذب النمير من مجالس الشنقيطي للتفسير" التي جمعها الشيخ خالد السبت، كتب مبحثًا رائعًا واستفاض، وأتى ببعض أحكام الدين، وانتقى مجموعة من الأحكام وأوضح مدى الحكمة والروعة والجمال في حكم ربنا سبحانه وتعالى، حتى في الأشياء التي يأتون فيها بشبهات

ضد الدين، فصل فيها؛ في الحدود، وفي القضاء، وفي كل شيء، وانتقى من كل الشبهات شيئًا، وظل يفصل فيها كيف أن القرآن تام، كيف أن القرآن مفصل، كيف القرآن صدق، وكيف القرآن عدل!

{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}(الأنعام: ١١٥) صدقاً في الأخبار في كل ما أخبر به وعدلاً في كل الأحكام في كل ما أمر به ونهى عنه فلا تحتاج بعد القرآن إلى غيره! {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، السميع: يسمع زخرف القول الذي يقال، الذي هو {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ}(الأنعام: ١١٢) ليصرفوا الناس عن القرآن. العليم: بنواياهم سبحانه وتعالى!

إذًا؛ هذا على القول بأن {كَلِمَتُ رَبِّكَ} المقصود بها القرآن.

وبعضهم قال: {كَلِمَتُ رَبِّكَ} أي: قضاء ربك. {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ}(يس: ٨٢)، يقول: هي كلمة الله، أي أن الله عز وجل قضى أن الدين سينتصر بالرغم من هذه الزخرفة. أي أن الله عز وجل قضى أن هناك ناس ستضل، والله عز وجل قضى عليهم بذلك لأنهم أهل للضلال. نحن قلنا المرة الماضية لما تكلمنا في التزيين وكيف أن الله عز وجل يزين لبعض الناس الباطل، لأنهم هم الذين اختاروا الباطل، وقلنا هذه قاعدة وسُنة {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ}(النساء: ١١٥)، {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ} (الليل: ١٠)، فالله عز وجل ييسر له الطريق إلى جهنم لأنه هو الذي اختار، ولهذا التيسير دائمًا يأتي بعد التبيين. وفصلنا المرة الماضية في ذلك.

{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} أي أن قضاء ربك تم صدقًا وعدلاً في هؤلاء الذين يستحقون ذلك. والذين خُدعوا يستحقون؛ لأنهم هم الذين تركوا القرآن وذهبوا يسمعون زخرف القول غرورًا، هم الذين أغلقوا القنوات الدينية وفضلوا مشاهدة القنوات الباطلة، هم الذين فعلوا بأنفسهم ذلك. هو الذي ترك الذي يشرح له القرآن والسنة ويقول له: قال الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشاهد أشياء أخرى! هو الذي ترك ذلك بنفسه، لا أحد أرغمه، والشيطان سيقول لهم ذلك:{وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي}(إبراهيم: ٢٢)، فأنا كل الذي فعلته أنني كنت أنادي عليكم! {إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي}، وهذا قضاء الله عز وجل. ويقول الله للنبي صلى الله عليه وسلم: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}(النحل: ١٢٧)؛ لأنه عندما تقرأ الآية {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}(الأنعام: ١١٢)، ويخدعون الناس وأناس كثيرة تضل وتصغى قلوبهم وأفئدتهم تميل لهم ويتحولون إلى جند من جنود إبليس {وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ}(الأنعام: ١١٣)، فقد تحزن عليهم، ولكن يقول الله للنبي صلى الله عليه وسلم: هذا الذي حدث فيهم هو صدق وعدل {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}(النحل: ١٢٧)، الذي حدث هو {كَلِمَتُ رَبِّكَ} وقضاء ربك فيهم هو صدق وعدل، وسُنة الله ماضية بأنه سوف ينصر أولياءه، فاجعل هؤلاء يزخرفون {فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}(الأنعام: ١١٢)

ويفعلوا ويأتوا بما يستطيعون، لكن الله عز وجل يمكر بهم سبحانه وتعالى {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا}(الطارق: ١٥-١٦).

إذًا؛ {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} المعنى الثاني: أي قضاء ربك نافذ مهما فعلوا! لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه سبحانه وتعالى، لذلك قال الله عز وجل: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}(الأنعام: ١١٥).

{لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} إذا أخذنا القول بأن الكلمات هي القرآن؛ فالمعنى: أي أن هذا القرآن لن يُحرف ولن يُبدل إلى يوم القيامة. وإذا أخذنا القول بأن الكلمات هي القضاء؛ فالمعنى: أن الله عز وجل قضى أمرًا أي لا مبدل لكلماته مهما أوتوا من قوة، فالله عز وجل سيهزمهم! ومهما كان معهم من عتاد ومكر، فالله عز وجل يمكر بهم!...مهما فعلوا، فكلمة الله نافذة، {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ* وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}(الصافات: ١٧١-١٧٣)، الأمر مفروغ منه.

إذًا هذه الكلمة إما كلمة شرعية التي هي القرآن، أو كلمة قدرية التي هي أقدار الله عز وجل. فكلام الله عز وجل سواء الشرعي أو القدري كله صدق وعدل. لا يوجد قدر يحدث إلا صدق وعدل، لا يوجد حكم شرعي يأتي إلا صدق وعدل، لا أحد يستطيع أن يُحرِّف الشرع، ولا أحد يستطيع أن يُبدل القدر، {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} سبحانه وتعالى.

وبعضهم قال ما الفارق بين التبديل والتحويل {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً} (فاطر: ٤٣)؟ إذا قلنا بأن المقصود بكلمة الله هنا القدرية: أي مثلاً ربنا قدَّر أن هناك عقوبة تنزل على الأرض الفلانية، فالتبديل أي لا أحد يقدر أن يغير هذه العقوبة لعقوبة أقل أو عقوبة أعلى أو تحويل العقوبة إلى ثواب؛ فلا أحد يقدر أن يبدلها! إذًا؛ التبديل تغيير العقوبة وتبديلها بشيء آخر. أما التحويل: أي لا أحد يقدر أن يحول هذه العقوبة من مكان إلى مكان آخر.

إذًا؛ الله عز وجل إذا قضى أن هناك عقوبة تنزل على مكان ما، فلا أحد يقدر أن يبدلها أو يخفف هذه العقوبة، ولا يقدر أن ينقلها إلى مكان آخر! لا أحد يقدر على فعل ذلك. فالله عز وجل إذا قضى أمرًا فلا معقب لحكمه سبحانه وتعالى، {وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} أي: يفعل ما يفعل عز وجل ولا يخاف عقبى ما يفعل، ولن يقدر أحد على فعل شيء؛ لذلك ربنا يقول: {فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}(الشمس: ١٤-١٥)، أحيانًا الشخص عندما يفعل شيئًا يخاف من عاقبة الذي فعله، لكن حاشاه سبحانه وتعالى لا يخاف عقباها؛ لأن أفعاله فيها حكمة! سبحانه وتعالى.

{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}(الأنعام: ١١٥)، آية تُطمئن؛ تطمئنك على الدين، وتطمئنك على الأقدار، وتطمئنك على المسلمين، {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} السميع بمكرهم والعليم بما يفعلون. عليم بمن يستحق النصرة، ومن يستحق الإضلال.

الآية التالية تعلمك أنه -للأسف- هذه الزخرفة انطلت على كثير من الناس، فربنا يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} (الأنعام: ١١٦)، كثير من الناس سار وراء هذه الزخرفة، مثل: إنسان يدخل المواقع التي على الإنترنت مثل "الفيس بوك" وغيره، ويرى عدد المتابعين لأحد الدعاة والعلماء المشهورين فيجدهم 5000 أو 10000 آلاف، ولكن عند المشاهير مثل: الممثلين أو المغنيين يجدهم 12 مليونًا! 13 مليونًا! فيتعجب! كان أحد الإخوة ينقل لي أرقامًا لا تكاد تُصدق! قلت له: 12 مليونًا؟ قال لي: أكثر هناك 23 مليونًا! صدقًا {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ}. وأكثر الناس يستجيب للزخرفة، يستجيب للزخرفة؛ لأنه ابتعد عن النور... متى جاءت هذه الزخرفة؟ قال الله عز وجل: {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا}(الأنعام: ١٠٤) من سيستجيب للزخرفة؟ الذي ترك البصائر يسهُل على الضُلَّال أن يُضلوه! {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا} أي: خُدعنا فاستطعنا خِداعهم! هو عُمي عن القرآن فضلّ، فعلم كيف يحدث الإضلال، فخدع الناس كما خدعه الشيطان، والسلسلة تتكرر. {أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ} ، ثم ينادي المخدوعون على أسيادهم، {فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ}! [القصص: ٦٢-٦٤].

إذًا؛ هذه المنظومة من الإضلال بدأت لما تركوا البصائر {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ}(الأنعام: ١٠٤)، تم خداعهم فأصبح هناك زخرفة، واتبعوا أكثر من في الأرض. العجيب أن أكثر من في الأرض بعد أن يضل يتجه إلى إضلال المؤمنين! أي أنهم ضلوا وأقاموا منظومة وبدأوا في وضع تشريع يضاد شرع الله عز وجل، ثم يُنشئون مجتمعًا ضالاً لإضلال المسلمين!

فهم في البداية بدأوا بمجموعة من القادة الضُلال ويخبرنا الله عز وجل بهذه المنظومة {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا}(الأنعام: ١٢٣)، فالأمر يبدأ بمجرمين بل بأكابر المجرمين يتجمعون -مثل بروتكولات الصهيونية- ويضعون خطة منظمة لخداع مجموعة من الناس، فيقيموا مجتمعًا ضالاً، ثم يبدؤون بنشر فسادهم، ويضعون تشريعًا مضادًا لتشريع الله عز وجل، ويبدؤون بنشر تشريعهم. فبعدما كان يستعمل الزخرفة لإضلال التافهين من الناس والمعرضين عن القرآن؛ بدأ يستعمل الزخرفة لإضلال المؤمنين أنفسهم! بدأ يلقي شبهات على أهل الإيمان، كما يقول الله عز وجل: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ}(الأنعام: ١٢١)، هذا لم يعد يتجه ليكلم أتباعه، بل يتجه ليكلم المؤمنين! فالله عز وجل يحذر النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه؛ لأن هؤلاء كُثر ويسببون ضغطًا {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}(الأنعام: ١١٦).

وهنا قاعدة مهمة جدًّا: "الحق لا يُقاس بالأكثرية"، أي أنه ليس معنى أن هناك عدد كبير من الشعب اختار شيئًا أن يكون هذا هو الصحيح! ليس دائمًا الأكثرية تعني الحق. وهذه إحدى الأخطاء البسيطة في مسألة الديمقراطية، أن الأمور لا تقاس دائمًا بالعدد. من الذي وضع هذا التصويت؟! ربما يكون من السفهاء، وربنا يقول: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ}(النساء: ٥) فهل أعطيه الحكم؟ والحكم

في الأموال أي: التحكم فيها!والعلماء تكلموا في معنى السفاهة وقالوا من يكون السفيه؟ وربنا قال في القرآن في أول سورة البقرة يوجد ناس اتهمت المؤمنين بالسفاهة: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ}(البقرة: ١٣)! هذا في أول جزء، ربنا قال في آخر الجزء: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}(البقرة: ١٣٠)، هذا هو السفيه! ليس المؤمن، لا؛ السفيه هو الذي ترك دين إبراهيم، وكذلك ربنا قال السفيه الذي سيعترض على أحكام الشريعة {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}(البقرة: ١٤٢)، إذًا؛ جاءت سورة البقرة وبدأت بأنهم اتهموا أهل الإيمان بالسفاهة، فربنا رد عليهم في آخر السورة بعدما وضح لهم أنهم هم السفهاء، وأنهم سائرون خلف السفهاء طوال السورة. ربنا أعلمهم أن السفيه هو الذي يترك ملة إبراهيم، وهو الذي يعترض على الأحكام التشريعية التي أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم.

فالأمر فيمَنْ الذي يعطي صوته؟! لذلك هناك شيء في الشرع اسمه "أهل الحل والعقد" هؤلاء الذين وُثق في دينهم وشرعهم، لذلك في قول الله عز وجل: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}(النساء: ٥٩) قالوا أي: "الأمراء والعلماء". فعندما يحدث الانفصال بين الأمراء والعلماء؛ الأمير هنا لا يطاع لأن طاعته مقيدة بطاعة الشرع. لذلك متى تقوم الخلافة الراشدة؟ لما الأمير يكون هو أعلم أهل الأرض، أي الخلافة الراشدة حينما يجتمعا العلم والإمارة؛ {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، عندما يكون الأمير هو العالم مثل أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم، هذه اسمها الخلافة الراشدة. وعلى قدر الانفصال بين الأمراء والعلماء على قدر الفساد، لذلك عدم نصح العلماء والجهر بالحق أمام الأمراء يؤدي إلى الفساد، فيجب أن يجهر العلماء بالحق دائمًا أمام الأمراء، ولا يكون هناك سلطة للأمراء على العلماء، ولا يكون مكانة العالم أقل من مكانة الحاكم، فإما يساويه أو فوقه، ولا يكون الحاكم هو الذي يُعيِّن العالم! فعلى قدر الانفصال على قدر الفساد.

الشاهد {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}(الأنعام: ١١٦)، لماذا جاءت هذه الآية تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقد يفهم السبب لو أن الخطاب كان موجهًا لعامة المؤمنين حتى لا يُخدعون -كما سيأتي نموذج محاولة إغراء أهل الضلال لبعض المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم، فبعدما نجحوا في فتنة كثير من الناس اتجهوا أيضًا لفتنة أهل الإيمان- ولكن لماذا هنا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وبالتالي لكل داعية من بعده؟ ولكل آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر، فما الذي يحذر الإنسان منه؟ الدعوة دائمًا تظل مرحلة طويلة في الاستضعاف، وهذه دائمًا من سنة الله، أن غالبية مراحل الدعوة تمر بالاستضعاف، ودائمًا المستقرئ للتاريخ يجد ذلك.

وكان د. راغب السرجاني -جزاه الله خيرًا- قد عمل استقراءً كهذا في التاريخ؛ أن غالبية مراحل التاريخ كان فيها استضعاف. بل عندنا القرآن يغلب عليه القرآن المكي ونزل في أوقات استضعاف، إذًا؛ المؤمن الداعية في مرحلة الاستضعاف يريد أن ينتقل إلى مرحلة التمكين، فماذا يفعل؟ هو يرى أن القوة موجودة مع الناس الكثيرة، ويحاول أن يُسيِّر ظروفه معهم، هكذا هو معتقد أنه سيعمل نقلة سريعة

للدعوة من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين عن طريق الاتفاقيات التي تتم بينه وبين القوى الموجودة، يحاول أن يسايرهم! ولا يعلم أن هذه القوى ستغير من شرعه ومبادئه!

إذًا؛ الداعية لا بد أن يحذر من التفكير في مواطن القوى! لأن الداعية معه حق فلو انشغل من الذي معه القوة ويغيِّر ظروفه لتناسب صاحب القوة سيتخلى عن هذا الحق. الدعوة ربنا قدر لها أن تنمو بطريقة معينة، هذا الفقير مع هذا الضعيف مع هذا المسكين مع هذا القوي وهكذا؛ تظل تمر بمراحل إلى أن تتكون وتقوى. الدعوة التي تقوم على أن هناك مراكز قوى والداعية يتماشى معها يحدث فيها شيء من اثنين: الشيء الأول أن يبدل في الدين؛ ليُرضي هذه القوة، لذلك ربنا يحذرنا دائمًا إياك أن يكون تقييم الداعية مبني على التقييم المادي، أن الذي معه مال يكون رجل جيد، أن الجماعة الكبيرة العدد تكون هي الصحيحة! أبدًا لا يصح هذا التقييم!

لذلك لما كانوا يقولون قارون سيء، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}(القصص: ٧٦)، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}(القصص: ٧٧)، ماذا فعل قارون؟ لم ينشر منشورات للرد عليهم، ولكن ماذا فعل؟ {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ}(القصص: ٧٩) فقط! ارتدى أجمل شيء لديه، علم أن الناس تتأثر بالضغط البصري أكثر من الإقناع بالكلام، فكثير من الناس لا يقتنع بالكلام ولكن ينبهر بما يرى، فقرر أن يبهرهم؛ فارتدى أجمل ما لديه وأجمل مركب عنده وخرج على قومه في زينته.فانبهروا وقالوا لقد ظلمنا قارون! {قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [القصص: 79]، فقالوا: اتضح أنه رجل جيد محترم، وقد ظلمناه بالفعل! استطاع قارون أن يُغير قناعات كثير من الناس- ما عدا بعضا من أهل العلم -بمجرد الضغط البصري وليس بالإقناع.

فإذا أصبح هذا هو تقييم الداعية سيتحوَّل من سلامة المنهج إلى منهج السلامة! سيتحوَّل من سلامة المنهج -بأن يحافظ على آيات القرآن- إلى الركون والأمن "السير بجانب الحائط" وهذا هو منهج السلامة، أن تسترضي الفئة الكبيرة وأن تسترضي من معه القوة، فيُحذِّرك الله عز وجل أن ليس معنى أنهم زخرفوا ولديهم أتباع كُثر والقوة أن تسعى لإرضائهم، أبدًا! كما قال سبحانه وتعالى {وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ}، حتى إذا نفسيتك غلبتك وأعجبك سيظل العبد خيرًا {وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ}(البقرة: ٢٢١)!

التقييم القرآني يختلف عن التقييم المادي والتقييم العددي. هذا تقييم رأسمالي تأثر به المسلمون للأسف، لكن نحن علينا أن نُقيِّم بالحق! فلان على الحق على حسب اقترابه و بعده من الوحي وليس على حسب ما معه من مال أو مدى قوته أو كم عدد أتباعه... لا شيء يدوم، مثلما قال المولى عز وجل: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ}(الأنعام: 94)، كل هذا سيتقطع ويذهب! أين الذين كان معهم القوة والعتاد {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا}(مريم: ٩٨)!

إذًا لو جعل المؤمن والداعية قناعاته ومبادئه ومنهجه يتغير على حسب مواطن القوة سيصبح كل يوم بدين، وسيصبح كل يوم بمنهج، وكل يوم بقواعد مختلفة. ولكن عندما يكون على المنهج الحق لا يتغير سيظل ثابتًا مهما تغيرت الظروف.

لذلك حذرنا الله سبحانه وتعالى ممن يفعل ذلك مثل ما ذُكر في سورة النحل: {أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}(النحل: ٩٢)، كانت بعض القبائل في الجاهلية توقع عهدًا مع قبائل أخرى، فإن حدث لقبيلة منهم أن صغرت وأصبحت ضعيفة فيخون عهده معها، وقبيلة أخرى كانوا ينوون قتالها لكنها كبرت وقويَت فيتحالف معها، العدو والصديق عندهم يتغير على حسب من "الأربى" الأكثر الأقوى. لكن هذا لم يحدث مع المسلمين، فعندما كانوا في الأحزاب وفي قمة الاستضعاف قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن من أعداءنا فارس والروم، (وكان يضرب الصخرة وهو يحفر الخندق ويقول فتحت فارس فتحت الروم)[٢] أي: كان مُصِرًا على أن فارس والروم سيظلون أعداء وسيحاربهم، إذًا؛ فالعدو لن يتغير على حسب القوة والاستضعاف، فالمسلم عدوه ثابت. قد تُعذر في التطبيق ليس عندك وسيلة لتطبق، لكن لا تعذر في التبيين أبدًا، هذه قاعدة مهمة جدًا!

حفظ الله القرآن من التبديل لكن لم يحفظ الدعاة من أن يبدلوا! الداعية من الممكن أن يُبدل، لذلك من أوصاف المدح: {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}، الذين لا يبدلون أبدًا في أيِّ حديث أو آية قرآنية قال فيهم الله تعالى: {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}(الأحزاب:23)، هؤلاء هم الرجال الصادقين! تبديلاً: يسمونها مفعولاً مطلقًا، أي مطلق من كل قيد، أي لم يبدلوا، لا في سراء ولا ضراء، ولا تعذيب ولا مغانم، لم يبدلوا أي شيء ولا في أي حال، لم يبدلوا لا في سورة، ولا في آية، ولا في حديث، ولا في حكم، لم يبدلوا أي شيء! الظروف تتبدل وهم ثابتون، {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}.

من الخطر أن تؤثر الزخرفة على منهجنا، قد تؤثر الزخرفة على الأتباع أو على من يشاهدوهم، إنما أن تؤثر على المنهج! فهذا هو مكمن الخطورة، {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ}، لذلك الخطاب جاء للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل من يسير على طريقه من الدعاة والمصلحين، {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} الأنعام: 116) مناهجهم "ظن"!

---

٢ عن عبدالله بن عمرو: أمر رسولُ اللهِ ﷺ بالخندقِ فخُندِقَ على المدينةِ فقالوا يا رسولَ اللهِ إنا وجدنا صفاةً لا نستطيعُ حفرها فقام النبيُّ ﷺ وقمنا معه فلما أتى أخذ المِعولَ فضرب به ضربةً وكبَّرَ فسمعتُ هزَّةً لم أسمع مثلَها فقال فُتحت فارسُ ثم ضرب أخرى وكبَّرَ فسمعتُ هدةً لم أسمع مثلَها قط قال فُتحتِ الرومُ ثم ضرب أخرى وكبَّرَ فسمعتُ هزةً لم أسمع مثلَها قط فقال جاء اللهُ بِحِمْيَرَ أعوانًا وأنصارًا

الهيثمي (ت ٨٠٧)، مجمع الزوائد ١٣٤/٦ • [روي] بإسنادين في أحدهما حيي بن عبد الله وثقه ابن معين وضعفه جماعة ، وبقية رجاله رجال الصحيح

{إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ}، أنت معك كتاب الله المفصل التام الصدق العدل، {أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا}(الأنعام: ١١٤)، {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}(الأنعام:١١٥)، لماذا يعتبر ما معهم "ظن"؟ لأنه مهما اجتهد وكان ذكيًا صادقًا وعادلاً في وضع منهجه فهو لا يعلم الغيب ولا يعرف ماذا يصلح حال الناس.

بمعنى أن من وضع الاشتراكية أو الليبرالية أو المناهج الوضعية كلها، أو من فكر في الديمقراطية، إذا افترضنا خلوه من أي هوى أو غرض سياسي وأنه يريد الخير للناس لكنه يظل قاصرًا! عقله قاصر، هو لا يعلم الغيب، هو لا يعلم ما يُصلح البشر، {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}(الملك: ١٤)، فهو لا يعلم ما يصلحه هو فضلاً عن أن يعلم ما يُصلح الآخرين! فهو يتبع الظن.

{إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}(الأنعام: ١١٦)، **الخرصْ**: هو أنك عندما تريد أن تُقدر الزكاة لشيء معين مثل: العنب والبلح تحديدًا -وذلك لأن زكاتهم تخرج وهم لا زالوا رطبًا- فهو يقدر الزكاة بالخرص بدل أن يأمر صاحب الزرع أن يُنْزِلُه ويعدُّه فيحدد له هذه تُخرج منها هذا المقدار من الزكاة، وبالتالي قد يخطئ وقد يصيب.

فهذا الخرص مبني على شعور الشخص بأن هذا الشيء جيد ومناسب وصحيح. فحتى هذا الرجل الضال الذي وضع المنهج الوضعي حتى لو كان يظن أن هذا المنهج جيد، فإنه يظل غير نافع -حتى مع افتراض حسن النية- افترض أن كل من يضع المناهج الأرضية للناس بدل القرآن حَسن النية لكن كيف له أن يعرف ذلك؟! هو عقله قاصر ولا يعلم ما يُصلح البشر!

مثلما ذكر لنا الله عز وجل نماذج وصل بها التشريع الأرضي لدرجة {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ}(الأنعام: ١٣٧)، وصل أنه من الممكن أن يقتل ابنه تقربًا! زُيِّن له قتل الولد! يئد البنت وهو في قمة الحرج النفسي {أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ}(النحل: ٥٩)، ذاهب بالبنت يرميها وبعدما يموتها يشعر أنه انتعش! أرأيت ضغط التقاليد قد تصل بالإنسان لأي مدى! هذا يحدث عندما يبتعد عن تشريع ربنا سبحانه وتعالى.

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}(الأنعام: ١١٧)، إلى أين ستذهب وتترك الله؟! هو الأعلم بالمهتدي وبالضال.

{ ۚ كُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ * وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ * وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ}(الأنعام: ١١٨-١٢١).

هذا الشوط من الآيات كله يعالج قضية معينة؛ هنا ذكر الله سبحانه وتعالى لنا نموذجًا لكيف أن شياطين الإنس والجن يوحون لبعضهم كي يفتنوا أهل الإيمان. هم زخرفوا القول وخدعوا السفهاء البعيدين عن القرآن، لكنهم لم يكتفوا بذلك بل أرادوا أن يفتنوا أيضًا أهل الإيمان، فماذا يفعلون؟ يتدخلون في الأحكام التشريعية! لذلك هنا {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}(الأنعام: ١١٤)، أول شيء يضربه في الدين هو الأحكام التشريعية، يشعرك أن أحكام القرآن فيها نقص وعجز وخلل ليست حكيمة وليست منطقية!!!

لذلك أحد معاني قول الله عز وجل: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ}(الحج: ٥١) قيل: أي يريدون أن يثبتوا أنها عاجزة! يقولون إن آيات الله عاجزة عن التطبيق! عاجزة أن تصل بالمجتمع إلى الحكمة والرحمة!

فهنا نموذج ماذا فعلوا؟ {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ}(الأنعام: ١١٨)، قيل إن مجموعة من فارس جاءت لمشركي قريش وقيل من اليهود وقيل إبليس هو من بعث مجموعة لمشركي قريش، إذًا هناك ثلاثة شياطين عندنا، الآية تقول: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}(الأنعام: ١١٢).

ذكر الله لنا هنا نموذجًا؛ شيطان يعلم شيطانًا أصغر منه، فيذهب الشيطان الصغير –الذي تعلم وفهم الدرس– يخدع أهل الإيمان، مثلما قال الله عز وجل هنا في ختام هذه القصة: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ}(الأنعام:١٢١)، الشياطين الكبار يوحون إلى الشياطين الصغار، لماذا؟ {لِيُجَادِلُوكُمْ}. الشياطين الكبار قيل إنهم من فارس أو من اليهود أو إبليس نفسه بعث لمشركي قريش. قيل إن إبليس بعث شيطانًا لبعض مشركي قريش يعلمهم هذه الحجة، وقيل إن أناسًا من فارس بعثوا لمكة شبهة! أرأيت تركيزهم وصل إلى أي مدى في حكم تشريعي بسيط جدًّا؟!

هكذا هو يبدأ يُشكك في حكم تشريعي واحد، وبدأ بالأكل والشرب –شهوات الإنسان في المطعم – ماذا قالوا؟ سواء كان فارس أو اليهود أو الشيطان، وإن كان غالب المفسرين قال لا يمكن أن يكون اليهود، فهم إما من شياطين من فارس أو إبليس هو الذي فعل ذلك. {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ}! كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين كيف تأكلون مما تذبحون بأيديكم، وهذه الميتة التي تُحرمونها مَن الذي أماتها؟! هم يشيرون إلى أن الله عز وجل هو من أمات الميتَة، فيقولون: "أتأكلون ما ذبحتم بأيديكم ولا تأكلون ما ذبح الله!" وفي رواية "وتزعمون أنكم تتبعون شريعته!"، قاصدين أنك إذا كنت تتبع شريعة الله فستأكل الميتة! يريدون أن يشككوهم! وبالفعل ورد في رواية: "فوقع ذلك في نفوس بعض المؤمنين"، فأنزل الله هذه الآيات. وفي رواية أخرى قالوا قبل أن تقولوا الشبهة اسألوا النبي صلى الله عليه وسلم سؤالاً: هذه الميتة التي تراها من الذي قتلها؟ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "الله".

هنا تعرف أن دائمًا أسئلة أهل الفساد والضلال لا يأتي من وراءها خير، لا بد أن تعرف أنه عندما يسألك سؤالاً فهو يريد أن يأخذ إجابتك ويبني عليها شبهة!

ولذلك خطر جدًّا لما مثلًا قناة معينة أو برنامج على مدار عشر سنوات يُعرض فيه شبهات وشهوات، وفجأة يستضيف شيخًا، بالتأكيد لم يتوبوا فجأةً! بالتأكيد هذا يتبع المسلسل المصطنع منهم، وأنه أداة لهدم إما رمز ديني آخر أو يوقعه في شبهة، المهم أنه يستعمله كأداة لنصرة منهجه الضال. فيجب أن أحكم على الشخص بتاريخه، فمن أول ظهور له وهو يتكلم بألفاظ بذيئة ويناقش شبهات، ولم نسمعه مرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. مثلما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي يوم الدين)[٣]! لم نسمعه مرة يقول قال الله تعالى في كتابه الكريم كذا وكذا... فهذا يشير إلى أن هناك خطأ! هناك غرض معين يستعمل هذا الشيخ كأداة لهدم الدين.

فالمشركون سألوا النبي صلى الله عليه وسلم سؤالًا: من الذي قتلها؟ فقال لهم: "الله"، فقالوا: "أتأكلون ما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون ما قتل الله وتزعمون أنكم تتبعون شريعته"، ثم تركوه ومضوا، دائمًا هذه أساليب التشكيك التي يستخدمها المشركون. فرد عليهم الله –سبحانه وتعالى– وأوضح لهم، والعجيب أن الرد من بداية الآية {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ}(الأنعام:١١٨)، لم يكن موجهًا للمشركين، لكن كان خطابًا موجهًا لأهل الإيمان، وهذا إما إعراضًا عن المشركين وكأن ليس لهم أهمية أو أن المهم هنا أنك تهتم بأهل الإيمان، لأن من الممكن أن بعضهم مثلما قال الله تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا... وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}(التوبة: ٤٧) هناك أناس ضعفاء يتأثرون بالكلام، {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}، والصحيح أن يبتعد عنهم ولا يسمع لهم{سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ}(المائدة: ٤١)، فمن يسمع لمن لم يأتوا للنبي صلى الله عليه وسلم ولم يعظموا سنته سيُفتَن. يقول لنا الله عز وجل في آخر الآية في سورة المائدة أحد أوجه الفتنة: {وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}، فبالتالي أحد أوجه بدايات الفتنة أنه يسمع الكذب {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ}، أي: لم يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ولم يعظموا سنته بعد مماته! فأحد أوجه الفتنة الذي يفتن نفسه {وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} أنه يسمع الكذب ويسمع الذين لا يعظمون النبي صلى الله عليه وسلم، هو الذي يفتن نفسه ويعرضها لزخرف القول، فيغَّر، فيرضى، فيقترف {ما هم مقترفون}(الأنعام:١١٣).

---

[٣] عن عائشة أم المؤمنين: قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعانَ كانَ في الجاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطْعِمُ المِسْكِينَ، فَهلْ ذاكَ نافِعُهُ؟ قالَ: لا يَنْفَعُهُ، إنَّه لَمْ يَقُلْ يَوْمًا :رَبِّ اغْفِرْ لي خَطِيئَتي يَومَ الدِّينِ.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢١٤ • صحيح •أخرجه مسلم (٢١٤) •

فالخطاب لأهل الإيمان، يقول الله سبحانه وتعالى: {فَكُلُوا} أي: فأعرضوا عن هذه الشبهات {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ}(الأنعام: ١١٨)، لا بد أن توقن في تشريع الله. وهنا هذه الميتة ماتت دون أن يُذكر عليها اسم الله وماتت بقدر الله، فكأن الله يعلمنا حتى الطعام –بل حتى الجماع– إذا ذُكر اسم الله عليه يحوّله لشيء آخر!

فالمؤمن لا يتحرك إلا باسم الله، ولا يأكل إلا باسم الله، تخيل حتى الجماع يُذكر الله عز وجل قبله، فالمؤمن يحيا حياته كلها بالله. مثلما كان يقول النبي صلى الله عليه وسلم في أدعية قيام الليل: (أنا بك وإليك)[٤]، أنا حياتي أقوم بك وأتجه إليك! فالله عز وجل يخبرنا أنه عندما يغيب ذكر اسم الله عليها عند الذبح لا تحل لنا.

هناك خلاف في كتب التفسير وخاصة الإمام القرطبي فصل في المسألة، فماذا عن ذبيحة النصارى؟ وذبيحة المجوس؟ بالطبع ذبيحة المجوس أمر لا يخصنا، ولكن هل نأكل ذبيحة النصارى؟ وهل هم نصارى هذه الأيام؟ هل تسمي الله؟ الشاهد وما يهمنا قالوا: من نسي أو ترك التسمية نسيانًا –إن شاء الله– ذبيحته جائزة، هذا رأي الإمام الشافعي، بل حتى قال ولو عمدًا لكن لا يكون استهزاءً. قالوا: من ترك التسمية استهزاءً واستخفافًا هذا ذبيحته حرام. وهذا الأمر مفصل في الكتب على ثلاثة أقوال عند الأئمة... الشاهد{فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ} لو أنك مصدق وعندك يقين ستطبق شرع الله.

{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ}(الأنعام:١١٩)، يبلغنا الله جل وعلا أننا لا نحتاج إلى من يُعرِّفنا الحلال من الحرام، فالأمور مفصلة. لا تتلقوا التشريع من غير الله!

---

٤ عن علي بن أبي طالب:، عن رَسولِ اللهِ ﷺ، أنَّهُ كانَ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ، قالَ: وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمواتِ والأرْضَ حَنِيفًا، وما أنا مِنَ المُشْرِكِينَ، إنَّ صَلاتِي، ونُسُكِي، ومَحْيايَ، ومَماتِي لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ، لا شَرِيكَ له، وبِذلكَ أُمِرْتُ وأنا مِنَ المُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أنْتَ المَلِكُ لا إلَهَ إلّا أنْتَ أنْتَ رَبِّي، وأنا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، واعْتَرَفْتُ بذَنْبِي، فاغْفِرْ لي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلّا أنْتَ، واهْدِنِي لأحْسَنِ الأخْلاقِ لا يَهْدِي لأحْسَنِها إلّا أنْتَ، واصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَها لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَها إلّا أنْتَ، لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ والخَيْرُ كُلُّهُ في يَدَيْكَ، والشَّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ، أنا بكَ وإلَيْكَ، تَبارَكْتَ وتَعالَيْتَ، أسْتَغْفِرُكَ وأتُوبُ إلَيْكَ، وإذا رَكَعَ، قالَ: اللَّهُمَّ لكَ رَكَعْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، ولَكَ أسْلَمْتُ، خَشَعَ لكَ سَمْعِي، وبَصَرِي، ومُخِّي، وعَظْمِي، وعَصَبِي، وإذا رَفَعَ، قالَ: اللَّهُمَّ رَبَّنا لكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمواتِ، ومِلْءَ الأرْضِ، ومِلْءَ ما بيْنَهُما، ومِلْءَ ما شِئْتَ مِن شيءٍ بَعْدُ، وإذا سَجَدَ، قالَ: اللَّهُمَّ لكَ سَجَدْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، ولَكَ أسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وصَوَّرَهُ، وشَقَّ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ، تَبارَكَ اللَّهُ أحْسَنُ الخالِقِينَ، ثُمَّ يَكونُ مِن آخِرِ ما يقولُ بيْنَ التَّشَهُّدِ والتَّسْلِيمِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسْرَرْتُ وما أعْلَنْتُ، وما أسْرَفْتُ، وما أنْتَ أعْلَمُ به مِنِّي، أنْتَ المُقَدِّمُ وأنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إلَهَ إلّا أنْتَ.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٧٧١ • صحيح•

كما يروى في الأثر لما النبي صلى الله عليه وسلم رأى الصحيفة مع سيدنا عمر فغضب وقال: (أَمُتَهَوِّكون فيها يا ابن الخطاب)[٥]! لا يجب أن يكون لديك مصدر بديل! وأحد أوجه تأويل حديث البخاري: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)[٦]، تأويل ابن عُيينة قال: "أي من لم يستغنِ بالقرآن عن غيره فليس منا". من يشعر أنه يحتاج مع القرآن شيئًا آخر للهداية –الوحي والسنة– هذا ليس منا، ليس من أهل هذا الدين!

{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، سيحاول كثير من الناس أن يضلوك، ويبدأ معك من تشريع واحد، يقول لك: سأتناقش معك في حكم واحد، يأتي لك مثلاً بحكم في الميراث أو حكم في الرق أو حكم في الجهاد، يذكر لك مسألة واحدة ويأتي فيها بشبهة، مثلما يقولون لك: من الذي قتل الميتة؟ فأنت تقول له: الله، فتجيب ويبني شبهة على إجابتك! فيجب أن يكون لديك استغناء ويقين في تشريع الله سبحانه وتعالى: {وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ* وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ}(الأنعام: ١١٩–١٢٠)، من يريد التقرب إلى الله يترك الإثم ولا يبرره! هذا تعريض بهم، من جاءوا ليقولوا: "أتأكلوا ما قتلتم بأيديكم ولا تأكلوا ما قتل الله وتزعمون أنكم تتبعون شريعته" أتقولون ذلك وأنتم غارقون في الإثم!

من معاني {وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ}، مثلما ذكر الإمام الطبري عن كثير من التابعين وابن عباس قال: هذا تعريض بهم، كان المشركون –المقصود بالإثم هنا: الزنا– وهذا أيضًا في تأويل {وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}(الأنعام: ١٥١)، كانوا يستقبحون الزنا إذا كان علانيةً أما إذا كان سرًا فلا بأس به! كان من تشريعاتهم في الجاهلية أن الزنا بتراضي الطرفين بغير زواج مقبول، إنما العلانية هذا هو الإشكالية. تشعر أن هناك توافق بين القوانين الجاهلية في العصور المختلفة، فكانوا يقولون الزنا طالما سرًا فلا بأس به، لكن المستقبح أن يكون في علانية. فكيف لك أن تجادلني في الذبيحة وأنتم عندكم الزنا في السر والعلانية! {وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا

---

٥ عن جابر بن عبدالله: أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ أتى النبيَّ ﷺ بكتابٍ أصابه من بعضِ أهلِ الكتابِ فقرأه على النبيِّ ﷺ قال فغضب وقال أَمُتَهَوِّكون فيها يا ابنَ الخطابِ والذي نفسي بيده لقد جئتُكم بها بيضاءَ نقيَّةً لا تسألوهم عن شيءٍ فيخبروكم بحقٍّ فتكذبوا به أو بباطلٍ فتُصدِّقوا به والذي نفسي بيده لو أنَّ موسى كان حيًّا ما وَسِعَه إلا أن يتَّبِعَني

ابن كثير (ت ٧٧٤)، البداية والنهاية ١٢٢/٢ •إسناده على شرط مسلم

٦ عن أبي هريرة: ليسَ مِنّا مَن لَمْ يَتَغَنَّ بالقُرْآنِ، وزادَ غَيْرُهُ: يَجْهَرُ بهِ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٥٢٧ • صحيح •

يَقْتَرِفُونَ* وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ}(الأنعام: ١٢٠-١٢١)، قيل: الميتة، وقيل: مما لم يذكر اسم الله عليه، ولكن ذُكر اسم أحد الأصنام عليه.

فهذا النهي إما يوجه للميتة، {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} أي: الميتة، لماذا لا تأكل الميتة؟ لأنه لم يذكر اسم الله أثناء ذبحها!

لذلك حتى عندما ترسل للصيد تسمي الله عليه، وإذا لم يكن كلب الصيد مُعلَّم فلا تأكل من فريسته لأنها تعتبر ميتة، لأنه لا بد أن يتم الصيد بطريقة معينة وله في الفقه مسائل معينة، ومتى هذا الصيد يحل ويكون مُذكى تذكية شرعية، وهناك تفصيل في هذه المسألة. وبالطبع المسألة فيها إعجاز علمي كيف أن التذكية الشرعية فيها فوائد. وهناك كتب أُلِفت في مسألة الإعجاز في باب تذكية الذبيحة، لكن حتى قبل أن نعلم هذا نحن نوقن {إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ}(الأنعام:١١٨)، نحن نؤمن ونوقن بهذا.

وإما النهي هنا؛ {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ}(الأنعام: ١٢١) أي: لا تأكلوا مما ذكر اسم غير اسم الله عليه. كانوا يذبحون تقربًا إلى الأصنام، وقيل كانوا يذبحون تقربًا إلى الجن حتى يحموهم ،كما قال تعالى {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}(الجن: ٦)، كانوا يعوذون بهم؛ فكان أحد العرب إذا نزل في وادٍ مهجور فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي! يطلب الحماية من الجن!

وكانوا أحيانًا يذبحون للجن ذبائح تقربًا إليهم ويذكرون اسم الجن، بل بعضهم -وهذا للأسف موجود حاليًا في بعض البلاد العربية- يخاف أن يذكر اسم الله على الذبيحة كي لا يضره الجن! وذكر ذلك بعض أهل تونس من المفسرين أن هذا موجود عندهم في بعض الأماكن، يخاف أن يذكر اسم الله على الذبيحة كي لا تضره الذبيحة فيذكر أي اسم آخر ولا يذكر اسم الله! انظر لما يحدث عندما يبتعد الإنسان عن الوحي! وهذا حرام قطعًا، {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ}(الأنعام : ١٢١).

وهذا سيأتي في تفسير قوله: {رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ}(الأنعام: ١٢٨)، كيف استمتع الجن بالإنس؟! وكيف استمتع الإنس بالجن؟ ما هو وجه الاستمتاع؟ سيأتي في نفس السياق -إن شاء الله- المرة القادمة، والسياق كله يبدأ من تعاون الإنس مع الجن في الدنيا وكيفية استمتاعهم في الدنيا وكيف يكون عقابهم مع بعض في الآخرة. سيُذكر اسم الإنس والجن في هذين الربعين كثيرًا.

{وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ}(الأنعام: ١٢١)، كما قلنا غياب ذكر اسم الله على الشيء يُنفِّر الإنسان منه. المؤمن لا يأكل ولا يتحرك ولا يفكر إلا باسم الله، بل أول آية نزلت: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}(العلق: ١)، حتى تصطحب اسم الله في القراءة، تدخل البيت تسمي الله، تدخل وتخرج المسجد تسمي الله، واسم الله عز وجل يصحبك في كل مكان. لذلك قال: {ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا}(هود: ٤١)، كيف نركب في وسط هذه الأمواج العالية ؟ وهذه سفينة في وسط أمواج كالجبال! {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ}(هود: ٤٢)، وما الذي يثبتنا وسط الجبال؟!

بسم الله {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ}، مع ذلك قال: {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} أي: مجراها باسم الله، فلو كانت تجري بدون اسم الله لهلكنا!

{وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}(الأنعام: 121)، الخطورة في الختام؛ {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}،أبسبب مسألة واحدة؟! مسألة من باب من وسط كتاب من وسط الأحكام الفقهية، مثلاً: كتاب الأطعمة، باب الذبيحة، فصل التسمية، مسألة واحدة: أننا إذا أطعناهم في هذه التسمية {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}!...

هناك فرق بين أنك خالفت في مسألة فقهية وبين أنك تلقيت تشريعًا من غير القرآن والسنة، كالفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم؛ معصية آدم غلبته نفسه {فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}(طه: ١١٥)، لكن معصية إبليس عناد! رفض للتشريع! اعتراض {قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}(الإسراء: ٦١)! هذا هو الفرق بين معصية ومعصية أخرى، لذلك معصية آدم غُفرت، بينما الأخرى كانت كفرًا وطُرد بها – والعياذ بالله–.

هناك فرق بين شخص نسي أن يُسمي الله أو أيًّا كان، وآخر يستحل تشريعًا من مكان آخر. مَن يوقن ويعتقد أن هناك تشريع أفضل من تشريع الله هو كافر وهو مشرك إجماعًا، {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}. إذا تلقيت التشريع من غير الله ...وهذا الأثر المشهور الذي حسنَّه بعض أهل العلم الخاص بعدي بن حاتم الطائي، لما سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}(التوبة: ٣١) فقال عدي: إننا لم نتخذهم أربابًا ولم نُصلِّ لهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم له: الأرباب ليست بالصلاة، الأرباب بالتحليل والتحريم![٧]

وهذا هو الجزء الثاني من سورة الأنعام؛ التحليل والتحريم في الأطعمة والأشربة. فالشوط الأول من سورة الأنعام هو مجادلة ومناظرة مع الكفار وهدم للقادة والمتبوعين، وهم مستمرون في الجدال وطلب الآيات! الجزء الثاني من السورة؛ عن هدم تشريعاتهم لأنهم أقاموا مجتمعًا ضالاً ووضعوا له تشريعات، {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ}(الشورى: ٢١)، وضعوا لهم تشريعًا وسموه دينًا! وكانوا يتقربون بالتشريعات الباطلة. يقول مثلاً: حرام لا تركب على الدابة بعد سن كذا، حرام؛ هذا للآلهة، حرام؛ لا تفعل كذا، حتى إنهم كانوا يطلقون عليها الألفاظ الشرعية. فالجزء الثاني من سورة الأنعام يتكلم

---

٧ عن عدي بن حاتم الطائي: قدمَ [عديُّ بنُ حاتمٍ] على النَّبيِّ ﷺ وهو نصرانيٌّ فسمعه يقرأُ هذه الآيةَ :اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ والْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إِلّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا واحِدًا لا إِلَهَ إِلّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ قال: فقلتُ له: إنّا لسنا نعبدُهم، قال: أليسَ يحرمونَ ما أحلَّ اللهُ فتحرّمونَه، ويحلُّونَ ما حرَّمَ اللهُ فتحلُّونَه، قال: قلتُ: بلى، قال: فتلك عبادتُهم

ابن تيمية (ت ٧٢٨)، حقيقة الإسلام و الإيمان ١١١ •حسن •

عن سفاهة المشركين. مثلما قال ابن عباس: ما بعد المائة من سورة الأنعام تتكلم عن سفاهة تشريعات المشركين.

فهنا أمر عظيم أن يقول الله عز وجل: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ} أي: ولو كان هذا في تشريع واحد، لكن قبلت أن هذا يكون هذا مُشرِّع! قبلت من إبليس –سواء هنا إبليس الشيطان هو المشرع أو فارس أو اليهود– قبلت تشريع مكان تشريع الله عز وجل، استبدلت هذا بذاك {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}! توحيد مصدر التلقي؛ الوحي هو مصدر التلقي. آية عظيمة؛ قبول حكم واحد منهم قال الله عز وجل: {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} آية مخيفة!

وبعدها المثل الذي سنشرحه المرة القادمة، كيف تستبدل الوحي بشيء آخر، كيف تختار الظلام بعد أن كنت في النور! {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}(الأنعام: ١٢٢).

نكتفي بهذا القدر. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت استغفرك واتوب إليك. وجزاكم الله خيرًا.